



تُضاف دماء السوريين التي سالت في تفجيرات مدینتي جبلة وطرطوس، قبل أيام، إلى النهر الدامي الذي بدأ جريانه، منذ أعلن النظام الأسدی حرباً شاملة على الثورة السورية، وحاضنته الاجتماعية، والذي لن يتوقف جريانه إلا بالخلاص من نظام البراميل المتفجرة، وحلفائه الروس والإيرانيين، ذلك أن أركان النظام رفعوا، منذ نحو خمس سنوات، يافطة "الأسد أو نحرق البلد"، مقابل شعار "يا الله ارحل يا بشار"، في مقايضةٍ دامية، تشرط قتل جميع المحتجين السوريين، وحرق مدنهم وبلداتهم وقراهم، في مقابلبقاء الأسد في السلطة.

وتطبيقاً لذلك، لم يتوان النظام، منذ اللحظات الأولى للثورة السورية عن قتل المحتجين المسلمين، ثم قتل الثوار وقتل غالبية الناس في جميع المناطق الخارجية عن سيطرته، وخصوصاً التي تحضن المعارضة المسلحة، كما لم يتردد في تدمير المعالم التاريخية، والأحياء والمدارس والمستشفيات، في كل المدن والبلدان والقرى التي عرفت حراكاً ثورياً مناهضاً له. ولم تختلف معظم مدن الساحل السوري وبلداته عن سواها، إذ عرفت حراكاً مناهضاً للنظام الأسدی، منذ بدايات الثورة في كل من طرطوس وبانياس وجبلة واللانقية، لكنها واجهت قمعاً غير مسبوق، وتمكن النظام من إحكام قبضته الأمنية عليها، وأطلق العنان لشبيحته فيها تقتل وتتكلّم بمنشاء. وبعد ذلك، باتت المنطقة الساحلية في منأى عن القتل والدمار والمحاصر والتوجيع الذي لحق بباقي المناطق والمدن السورية، وبدا وكأنها تتمتع بالأمن والأمان.

وتشير التفجيرات السبعة التي ضربت مدینتي جبلة وطرطوس، أخيراً، إلى دخول الكارثة السورية مرحلة دموية أخرى، لا تخرج عن إطار التوظيف البشع لدماء السوريين، أينما وجدوا، في الحرب الشاملة التي يخوضها النظام الأسدی ضد غالبية السوريين، بمن فيهم من يدعى حمايّتهم، وذلك خدمةً لبقاء الأسد، المستعد لأن يضحي بالسوريين جميعاً في سبيل بقاءه جائماً على صدورهم إلى الأبد.

ولا جيد في تبيان أن النظام الأسدی، بنسخته، الأب والابن، يوظف دماء السوريين في خدمة بقاءه في السلطة، حيث كان قام بتفجيرات دامية في أحياط عديدة في حلب ودمشق، في ثمانينيات القرن العشرين المنصرم، في صراعه مع جماعة الإخوان المسلمين، واتهم معارضيه بتنفيذها. ونفذ، منذ بداية الثورة السورية، تفجيرات وهجمات إرهابية عديدة في العاصمة دمشق، طاولت مقرّاته الأمنية وأماكن تجمع المدنيين، ولعل أشهرها كان الذي وقع في حي الميدان، في 6 يناير/ كانون الثاني 2012، حيث بث التلفزيون السوري الرسمي، عن طريق الخطأ، صوراً لمراسل إحدى المحطات الرسمية، في أثناء توزيعه أكياساً تحوي خضاراً وفواكه، إلى جانب بقع الدماء، على أنها أكياس من قبضوا من المدنيين. وكان التلفزيون السوري أيضاً حاضراً في مكان أحد تفجيرات طرطوس، حيث نقل صوراً لما خلفه التفجير بعد دقائق من وقوعه، ونقل

سكان عن وجود طوافم التلفزيون قبل التفجير، في تكرار لما حدث في حي الميدان في دمشق، حيث وجد عشرات من طوافم الإسعاف في محيط المنطقة نفسها قبل وقوع الانفجار بثلاث ساعات.

وفي السياق نفسه، لم يتربّد نظام البراميل المتفجرة في تصفية ما عرف بـ "خلية الأزمة" في 18 يوليو/ تموز 2012، التي كانت تضم العديد من رموز وأركان النظام نفسه، ونتج عنه مقتل وزير الدفاع داود راجحة، والعماد آصف شوكت، صهر الأسد، ورئيس مكتب الأمن القومي، هشام بختيار، ورئيس خلية إدارة الأزمة، حسن تركمانى. وقبله جرت عملية تصفية اللواء غازي كنعان، وزير الداخلية الأسبق، الذي قضا "منتحرًا" بخمس رصاصات! في مكتبه في 12 أكتوبر/ تشرين الأول 2005.

ولا يخرج توظيف تفجيرات جبلة وطرطوس عن إطار التوظيف الأداتي الذي يريده النظام وحلفاؤه الروس والإيرانيون، من خلال الربط بين اتهامات حزب الله للمعارضة (الجماعات التكفيرية) في قتل قائد العسكري، مصطفى بدر الدين، واتهامات النظام فصيل "أحرار الشام" بالوقوف وراء التفجيرات، وسعى موسكو في مجلس الأمن إلى وضع كل "أحرار الشام" و"جيش الإسلام" في خانة المنظمات الإرهابية.

واللافت أن النظام الأسدى عمد إلى تبرئة تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، وإلصاق التهمة "يوظف النظام الأسدى، بنسخته، الأب والابن، دماء السوريين في خدمة بقائه في السلطة" بفصيل أحرار الشام، حيث ادعى إعلام النظام الرسمي أن هذه الحركة تبنت التفجيرات، في حين لم يصدر عن المنابر الرسمية للحركة أي بيان، أو تعليق على الحادثة، والبيان الوحيد الذي صدر هو عن وكالة "أعماق" التابعة لتنظيم داعش، أكدت فيه تبني التنظيم التفجيرات التي طاولت "جمعات العلوين"، وفق لغة بيان تبني الجريمة التي تصب في خانة خدمة النظام، وأغراضه في الإمعان في تخريب النسيج الاجتماعي والديني السوري، وتعزيق جرائم ومشاعر الحقد الطائفي، ونشر ثقافة الخوف والمظلومية بين مكونات الشعب السوري.

ولا يخرج التوظيف الإرادوي للنظام من هذه التفجيرات عن زيادة الضخ في نهر الدماء السورية، ونشر صور القتل والقتل المضاد، وصور الأجساد المشوه، ودحرجة الرؤوس المقطوعة، وحرقها ورفعها على الأسيجة، كي ينعم الأسد، بوصفه القاتل الأول، باستعراض مهارات نظامه وحلفائه في تحويل الثورة إلى صراع طائفي ومذهبي، وبما يعزّز إمساك نظامه رقاب العباد من جديد. ولعل أولى ردات الفعل على التفجيرات ذهبت إلى الصحايا السوريين، وخصوصاً الذين هجّرهم نظام البراميل المتفجرة وحلفاؤه من أماكن سكنهم وعيشهما، ونزحوا إلى مناطق الساحل، حيث قتلت قطعان الشبيحة بعضهم، واعتدت على الآخرين وممتلكاتهم، تمهدًا للخلاص منهم، أو إعادة تهجيرهم، وضرب التركيبة الديموغرافية السورية.

وما يعزّز هذا التوظيف البشع هو التنسيق والتعاون ما بين النظام الأسدى و"داعش" الذي تجاوز مجالات صفقات النفط، وتبادل السيطرة على بعض المدن والبلدات السورية، في عمليات تسلم وتسلیم مفوضة، والارتفاع بها إلى مصاف التقاسم في ارتکاب الجرائم، وتقديم الخدمات الأمنية، وذلك بعد نشر صور مرعبة على وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي، لأحد رموز الإجرام في نظام البراميل المتفجرة، عصام زهر الدين، وهو يقطع أشلاء جثتين، متباهياً ب فعلته البشعة التي لم يكن تقصها سوى مباركة مفتى النظام، أحمد حسون الذي لم ينس كيل المدافع لمليشيا حزب الله.

يجري ذلك كل، في ظل استعصاء الحل السياسي الذي يديره الساسة الروس والأميركيون، وبالتزامن مع تدمير سوريا، وتغيير بنيتها الاجتماعية، لكي يبقى الأسد مجرماً من طراز خاص، ينعم بحماية رصيفه، الرئيس الروسي فلاديمير بوتين (بوصفه ذنباً له)، ولا مبالاة الرئيس الأميركي باراك حسين أوباما.

المصادر: